سعيد بنكراد مترجما

حسن الطالب

تستحق تجربة سعيد بنكراد مع الترجمة والتأليف وقفة تأمل في مسار هذا الباحث المغربي الذي راكم في هذين الحقلين منجزا أكاديميا جديرا بالقراءة والدرس والتحليل. وتتجلى أهم ملامح هذه التجربة في كونها تُزاوج بين هذين الإشغالين في وقت واحد، في تناغم وانسجام يعكس تصوره للممارسة الأكاديمية، حَدّ أنه شكّل ملمحا رافق مسيرته العلمية منذ بدايتها حتى كتابة هذه السطور. فإلى جانب اشتغال الباحث /المترجم بحقل التأليف،نظرا وتطبيقا، في حقل السيميائيات وسعيه الدؤوب إلى تزيل أطروحاته، في السرديات بادئ الأمر، ثم في حقل الإشهار والصورة بعد ذلك، ظلّت الترجمة لديه، ولا زالت، أفقا ونافذة لا غنى عنها في مواكبة المستجدات المعرفية في حقل السيميائيات، ورافدا أساسيا لما يؤلفه من كتب، تتصل بالمحورين المشار إليهما، بل وتتعداهما إلى مجالات أخرى تشمل مناحي من مستويات التحليل السيميائي والبنيوي والثقافي عند أعلام معروفين عالميا (إيكو، غريماس، فوكو) ؛ هذا فضلا عن الترجمات التي أنجزها لبعض المؤلفات المرجعية في حقل الإشهار والصورة، و التي أصبحت اليوم من بين أهم المراجع التي يلوذ بها الباحثون والطلبة في الجامعات المغربية والعربية على حد سواء.

ليست ورقتنا هذه مجرد استعراض لمجهود الباحث في مجال الترجمة، ولا تقريظا لهذا المنجز من حيث جودة الترجمات من عدمه، بقدر ما أنها لا تدعي النظر التطبيقي في قراءة منجزه الترجمي عبر استحضار الأصول والنسخ؛ ففيما يتعلق بهذه النقطة لا أحد يجادل في أن ترجمات الباحث حازت القبول الحسن، والانتشار الواسع، لدى الباحثين والقراء، كما نال من التقريظ والثناء الشيء الكثير، ما أهلّه لأن يُتوّج بجوائز وطنية ودولية في صنف الترجمة تحديدا(1).أما الثانية فإن المناسبة التي تؤطر هذه المداخلة هي مناسبة تكريم للرجل،وليست نقدا أو تقييما

بالمعنى العلمي للكلمة، وإن لم تخل الورقة من بعض جوانبهما. لذلك سنكتفي بتناول تجربة الباحث –المترجم عن فرضية بسيطة تتمثل في تكامل وتداخل حقلي التأليف والترجمة لديه، و كيف ترتّبت عن هذا التكامل والتداخل نتائج تترجم تصوره المعرفي لطبيعة البحث العلمي في حقل السيميائيات وتطبيقاته المختلفة، خاصة في السرديات والصورة الإشهارية.

المزاوجة بين التأليف والترجمة : ثمة ملاحظة كونية تستلفت الانتباه في تاريخ الترجمة، وهي لا تقتصر على حقل النقد الأدبي،بل تمتد لتشمل حقل العلوم الإنسانية برمته. فبعض الفلاسفة ومنهم غوته مثلا، بدأوا مسارهم مترجمين قبل أن يتحوّلوا إلى فلاسفة، وظلت الترجمة انشغالا يلازمهم في مسارهم الفلسفي؛ وسواء اتصلوا بها من باب الوضع أو الممارسة، فقد شكلت بالنسبة لهم هاجسا معرفيا ما انفكّ يتصادى مع إبداعهم الفلسفي (شلايماخر – ريكور – دولوز – إيكو) . والملاحظة ذاتها تكاد تشمل النقد الأدبي. فإذا استعرضنا المسار النقدي لنماذج من النقد العربي، منذ النصف الأول من القرن العشرين، وجدنا أن منهم من كرّس همّه للتأليف وحده، دون الترجمة في حقل تخصصه، رغم أن له من المؤهلات ما يجعله قادرا على خوض عباب الترجمة كما يقال، نقلا أو اقتباسا. فقد كان بعض النقاد والنهضويين الكبار من الجيل الأول، بدءا برفاعة رافع الطهطاوي في القرن التاسع عشر، مؤلفين ومترجمين، ثم سار على نهجهم جيل الوسط كطه حسين، ومحمد منذور، وعباس العقاد، والمازني، والزيات، مع امتلاكهم لوعي بأهمية الترجمة ودورها في رفد الثقافات الوطنية بالجديد المفيد، بينما حجم بعضهم الآخر، بالمرة، عن خوض عباب فن الترجمة. ولعل النقاد المعروفين في أواخر القرن الماضي حتى الآن من قبيل إحسان عباس ولويس عوض– وجورج طرابيشي وجابر عصفور في المشرق العربي؛ ومحمد برادة وسعيد علوش وسعيد بنكراد، وحميد لحميداني ورشيد بنحدو ... على سبيل التمثيل لا الحصر في المغرب، أمثلةٌ لهذه المزاوجة المكثفة واللافتة للانتباه بين التأليف والترجمة. وكان من شأن هذه الملاحظة ألا تثير الانتباه، لولا وجود ما يقابلها من أسماء لامعة، بل ومُنظِّرة في مجال النقد الأدبي أحجمت بالمرة عن ممارسة الترجمة، على الرغم من أنها تناولت جانبا من جوانبها على مستوى التنظير والتأليف(2). فما هي دلالة وأبعاد هذه المزاوجة عند س. بنكراد؟

في منجز الترجمة : بلغ عدد الكتب التي أصدرها الدكتور سعيد بنكراد حتى الآن ما يقارب 26 إصدارا، معظمها صدر في الألفية الثالثة. وقد احتلت الترجمة مكانة بارزة في مجمل هذا المنجز الذي بدأ بترجمة "سيميولوجية الشخصيات الروائية"، وانتهى بكتاب "قول في التسامح" لفولتير عام 2016. ومنذ عام 2000 كما أشرنا توالت إصداراته– تأليفا وترجمة — بشكل مكثف لافت للنظر بمجموع 13 ترجمة. وجدير بالذكر أننا لم نأخذ هنا في الحسبان الأعمال العديدة التي شارك فيها بنكراد مؤلفا أو مترجما.

كرونولوجية الأعمال المترجمة :

– سيميولوجية الشخصيات الروائية لفيليب هامون (1991) (الطبعة الثانية دار الحوار 2014 .

– التأويل بين السيميائيات والتفكيكية (ترجمة وتقديم المركز الثقافي العربي، بيروت/البيضاء 2000) (مجموعة مقالات مختارة).

– ست نزهات في غابة السرد، أمبرتو إيكو (ترجمة وتقديم المركز الثقافي العربي، 2005، طبعة ثانية بعنوان جدي : تأملات في السرد الروائي 2014 (الطبعة الأصلية عام 1994)

– تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ميشيل فوكو(ترجمة وتقديم م.ث.ع 2006) (الطبعة الاصلية، الأصل غاليمار 1961)؛

– العلامة :تحليل المفهوم وتاريخه،لأمبرتو إيكو ((م.ث.ع 2006).

– حاشية على اسم الوردة منشورات "علامات" ترجمة 2007. (الطبعة الأصلية عام 1983)

–سيميائيات الأهواء: من حالات الأشياء إلى حالات النفس،غريماس وفونتاني،ترجمة وتقديم (دار الكتاب الجديد بيروت، 2010.) (الطبعة الأصلية عام 1991)

–آليات الكتابة السردية، لأيكو، ترجمة وتقديم، دار الحوار،2009. (عبارة عن 3 نصوص اختارها المترجم يعود اثنان منهما إلى 2003 والآخر إلى 1985)؛

–دروس في الأخلاق، إيكو، ترجمة.المركز الثقافي العرب، 2010. (الطبعة الأصلية عام 1997)؛

–الصورة: المكونات والتأويل، غي غوتيي، ترجمة وتقديم، 2012. (الطبعة الأصلية 1982)؛

–الإشهار والمجتمع، لبيرنار كاتولا، ترجمة وتقديم، 2012. (الأصل 1987)؛

–اعترافات روائي ناشئ، ترجمة وتقديم، المركز الثقافي العربي. 2014؛

-الإشهار والصورة، صورة الإشهار : ضفاف، الاختلاف، الأمان، بيروت 2015

-قول في التسامح لفولتير، ترجمة وتقديم، المركز الثقافي العربي، 2016.

جدير بالإشارة، أيضا، إلى أن هناك العديد من المقالات المترجمة التي لا يتسع المجال لحصرها، أغلبها موزع في أعداد مجلة "علامات" التي يديرها بنكراد منذ 1994 والتي غالبا ما يطلع علينا فيها كاتبا ومترجما في الوقت نفسه، هذا فضلا عن كتب جماعية من قبيل: " طرائق السرد الأدبي" و"نظرية الأدب"(3).

إن أولى الملاحظات التي يمكن أن نسوقها حول إنتاجه على صعيد الترجمة هي التنوع الذي يمكن القول إنه يغطي المجالات التالية:

-قضايا التأويل ونظرياته. (2 – 10)؛

-سيميائيات السردية وتنويعاتها النظرية والتطبيقية.(1 — 3 – 6– 8 — 12)؛

-حقل الصورة (10)؛

-حقل الإشهار (11)؛

-حقل تحليل الخطاب (الفلسفي) (4 — 9 – 13)

كيف تكون الترجمة إعادة كتابة وقراءة؟ لعل أفضل مدخل في مساءلة ما أنجزه الباحث هو ما جاء، في حديثه عن الترجمة، ضمن الحوار الذي أجراه مع مجلة " البلاغة وتحليل الخطاب". يقول ردا على سؤال حول مزاوجته بين نشاط التأليف والترجمة وكيفية اشتغال وتيرتهما لديه :

" أنا لست مترجما ولا علاقة لي بالترجمة بمفهومها الحِرَفِي. فما أقوم به في تصوري هو إعادة كتابة النصوص التي أقوم بترجمها (...) لذلك فالترجمة عندي هي جزء من اشتغالي بالسيميائيات. وما أكتبه وما أترجمه يدخلان كلاهما في مشروع واحد هو استنبات معرفة جديدة في تربة الثقافة العربية" .

ويواصل قائلا:" أنا اترجم لكي أُمكِّن القارئ من القيام برقابة على ما يُكتب في العربية حول السيميائيات. إننا نخلق حوارا بين ما نكتبه عن ثقافتنا ونصوصنا، وكل موضوعاتنا الثقافية وبين الخلفيات المعرفيات التي تستند إليها. بل أكثر من ذلك إن الترجمة كما أشرت إلى ذلك أعلاه هي نافذة لا نتعرف فيها على فكر أجنبي (ولا وجود لفكر أجنبي في ميدان المعرفة) بل كي نعيد اكتشاف ثقافتنا بالمعنى الذي يجعلنا نوحد ضمن رؤية زمنية واحدة بين كل الإسهامات الإنسانية في الفكر

المعاصر" (...) أنا لست مترجما محترفا. أنا ناقل نصوص إلى العربية، وهي عندي وسيلة من الوسائل التي يجب اعتمادها لتأهيل العربية وجعلها قادرة على مسايرة العصر والتعبير عن علومه. فليس هناك لغة في التاريخ تطورت استنادا إلى ممكناتها الذاتية. اللغة تتطور عندما تصبح قادرة على التكلم بلغات أخرى. وضمن هذه التجربة تدخل عملية نقل المصطلح إلى العربية"(4).

خلف هذا التصريح نتبين وظيفة الترجمة وغايتها عند س. بنكراد، ولعل ما يلفت انتباه القارئ فيه:

– أن الترجمة إعادة كتابة ؛ و معلوم أن لهذا المنظور في الترجمة توجُّه قائم بذاته.

–الترجمة مراكمة نوعية في لغة الاستقبال باستنبات معرفة جديدة تخرج من صلب التفاعل بين ثقافتين.

–الترجمة تؤسس لحوار بين نصوص الثقافة المستقبلة والثقافة المصدرة.

–الترجمة تتيح التعرف على ثقافة لغة الآخر، وليست مجرد نافذة مشرعة على ثقافته.

–الترجمة لا تقتصر على إيجاد معادل لساني ومعجمي وتركيبي بين لغتين، بل هي عملية نقل سياق ثقافي يمتلك تقطيعات مفهمومية خاصة مع حمولته المعرفية والفلسفية إلى لغة الاستقبال، التي لا تمتلك بالضرورة التقطيع المفهومي نفسه.

مفهوم الترجمة عند س.بنكراد: من اللافت للانتباه في المقدمات التي يكتبها سعيد بنكراد لترجماته خُلُوّها، جميعا، من بسط أو عرض عن منهجه في الترجمة. فكل الإشارات الواردة في هذه المقدمات لها وظيفة محددة تتلخَّص، أساسا، في تعريف الكتاب المترجم وتتبع قيمته المعرفية في حقل التخصص، وبجهود صاحبه، ثم حديث عن الإضافة النوعية التي يمكن للكتاب أن يراكمها في اللغة الهدف، وتصحيح التصورات الخاطئة الناجمة عن القراءة المغلوطة أو المنحرفة لمتون مرجعية في الحقل السيميائي بخاصة. من هنا نفهم لماذا يشدد بنكراد، في مواقف عديدة، أنه غير مهتم بنظريات الترجمة ومبادئها، وإنما هو منشغل بممارستها، أي بطريقته الخاصة في فهم النصوص وتفاعله معها، بناء على خلفية معرفية محددة في مجال اختصاصه وقراءاته(5). ذلك أنّ نظرية الترجمة لا تصنع مترجما جيدا إذا جاز لنا الحديث عن مقاييس نحدد من خلالها مَن هو المترجم الجيد ومن هو المترجم الرديء. وبناء على ما سبق تنحو كل المقدمات المذكورة إلى

تأطير أسباب نزول الأعمال المترجمة والتعريف بها، في سياقها الأوسع، بما يسمح بتوجيه القراء لالتماس الزاوية، أو المنظور، الذي يجب أن تُقرأ من خلاله(6). من ثم تغدو الترجمة في منظور سعيد بنكراد إعادة كتابة وخلق جديد، إنها تتعالى عن الاختلافات والفروق التي تميز لغتين مختلفتين من حيث المعجم والأساليب والتركيب ونظام الجملة لتحتضن ما يسميه المترجم بالذاكرة الثقافية باعتبارها خزانا من التصنيفات والأحكام. "فالمترجم –يقول بنكراد– لا ينقل نصا، إنه يحاول أن يكتشف حدود تجربة إنسانية جديدة، ما يشبه النبش في حياة غريبة من خلال أدوات حياة أخرى. فالنص يكتسب نَفسا فكريا جديدا من خلال الترجمة، إننا لا نتعرف على نص غريب، بل نكتشف نصنا أي نعيد النظر في كل ما تعلمناه من حقائق كانت تبدو لنا في مرحلة من مراحل عمرنا وكأنها الحقيقة المطلقة، الكيان الأمثل الذي لا يأتيه الباطل من أية جهة"(7). ومن المعلوم أن لهذا التصور الفلسفي في الترجمة مدرسة قائمة الذات بسَطها الدكتور عبد السلام بنعبد العالي بمهارة في كتابيه "في الترجمة(8)" وفي " ضيافة الغريب" وفيها يرى إلى الترجمة نشاطا تحويليا يستنبت معرفة جديدة في اللغة الهدف، تتحول معه عملية الترجمة إلى نوع من التملكAppropriation لنص الآخر من خلال صهر وتذويب موروثه في اللغة الهدف، ما يجعل الأنا في الترجمة تسعى دوما لاكتشاف ذاتها في الآخر. لهذا يشدد بنكراد على أهمية التأويل في الترجمة. ذلك أن كل ترجمة تأويل لكنه تأويل "هرموسي، أي محاولة لاستنبات جزئية دلالية متولدة عن لغة داخل تربة لغوية جديدة"(9). هكذا تصبح الترجمة عنده تحويلا transformation .بمفهوم جاك دريدا أي "تحويل لغة للأخرى ونص للآخر(10)". هي تحويل للقراءة والكتابة معا، وهي إذن تسمح باكتشاف الذات لذاتها وهي تترجم الآخر أي أنها تقرأ تاريخها وموروثها الثقافي في الآخر دون أن يعني ذلك ذوبانها فيها أو استسلامها فيه، ومن تم يرفض بنكراد الكلام عن الترجمة من المنظور الأصولي بما هو "غزو ثقافي" أو "تشويش" على اليقينيات، إنها تفاعل بين لغتين، بين فكرين، بين منظورين للعالم، لكنه تفاعل يتجدد بفضل التقائهما في بحر المعاني التي تتعالى عن الزمان والمكان، لأن الفكر عموما لا وطن له قار له، ولا أصل ثابت له وإنما. لذلك نجد سعيد بنكراد في سائر ترجماته، وخاصة ترجمته لـــ "العلامة" لإيكو و"سيميائية الأهواء" لغريماس وفونتاني ينطلق من تصور للترجمة يُغلّب وينتصر لممكنات اللغة

المنقول إليها. فالمترجم إذ يفكر في فك رموز النص الأصل يستحضر خلفيته المعرفية وتصوره للعالم وتجربته الممتدة مع النصوص وتحليلها وتأويلها. بناء على ذلك يصعب، في تصورنا، الفصل بين بنكراد المترجم وبنكراد القارئ، وبنكراد المؤول للنصوص. وهنا نكتشف أن اشتغال المعنى وإنتاجه في نظر هذا الباحث لا يعدو أن يكون، في الترجمة، سوى إعادة إنتاج تكتشف فيها اللغة الهدف ممكناتها المحتملة والمتعددة، وقُدرتها على استيعاب كل ما يرد من اللغة الأصل من مفاهيم وأفكار وتصورات. هكذا تصبح الترجمة توسُّطا سيميائيا بين ثقافتين متفاعلتين، حسب مفهوم أومبرطو إيكو الذي يميل سعيد بنكراد مرارا إلى توظيف بعض مفاهيمه لرصد العلاقة السيمياية بين الواقع المادي وبين المفهمة بوصفها أرقى أشكال الترميز لدى الإنسان، ومنها الترجمة.

بين هذا التصور للمعنى في الحقل السيميائي تخصيصا وبين تصور المعنى ووظيفته في نظرية الترجمة علاقات قائمة. فانطلاقا منه أسس سعيد بنكراد تصورا للترجمة مفاده أنها **إعادة** بناء أو بنينة جديدة(restructuration) وفق ممكنات اللغة الهدف كما سبقت الإشارة. لكنها إعادة بناء تتيح إمكانات لا نهائية للتجدد والاستكشاف. يتساءل بنكراد في كتابه " سيرورات التأويل: من الهرموسية إلى السيميائيات" :" إن المعاني لا يمكن أن توجد في انفصال عن اللغة الحاملة لها، والمعنى ينمو وينتشر داخل اللغة ومن خلال ممكناتها في التعيين وفي التقطيع المفهومي" كيف نترجم معنى دون ترجمة اللفظ وكيف نتصور المعاني خارج ممكنات اللفظ"(11). إن المعنى، بوصفه القاسم المشترك بين جميع اللغات، لهو الذي يضمن إمكانية الترجمة وعدم استحالتها من جهة؛ ومن جهة أخرى هو (المعنى) وعيٌ بوجوده في حدود ممكنات اللغة الهدف. ومن ثمّ يؤكد بنكراد مرة أخرى، وتتميما لما سبق، أن "الترجمة ليست انتقالا بسيطا من دال لساني إلى آخر، بل هي انتقال من حقل ثقافي له تقطيعه الخاص للمدرَك إلى آخر لا يملك بالضرورة التقطيع نفسه(12)". يطرح هذا التصور مشكلة القيمة التي تصبح مرهونة باختلاف التقطيع المفهومي للعالم في لغتين معينتين، الشيء الذي يقدم عنه بنكراد أمثلة معروفة في حقل الترجمة؛ ذلك أن" نقل أسطورة من الفرنسية إلى العربية يلعب فيها القمر والشمس أدوارا رئيسية (يعشق أحدهما الآخر مثلا) سيطرح الكثير من المشاكل الاصطلاحية والثقافية للترجمة. فالشمس مؤنثة في العربية وهي مذكرة في الفرنسية والقمر مؤنث في

الفرنسية ومذكر في العربية، وهو ما يعني إعادة النظر لحظة الترجمة في كل الدوائر القيمية المرتبطة بها. بل يجب إعادة كتابة الأسطورة وفق ما يتناسب مع القيم التي تحملها العربية الخاصة بالمذكر والمؤنث بكل الأبعاد الايديولوجية والدينية والاجتماعية التي يتحدد داخلها موقع الرجل والمرأة(13)".

بهذا المعنى تكون الترجمة وعيا بالاختلافات، لكنه وعي يُحوّل من طبيعة وقيمة معنى الدلالات لدى قارئ جديد في اللغة الهدف، وجميع المعاني التي يفرغها هذا القارئ عند قراءته لترجمة ما للأشياء من حوله تصبح مرفوقة بمعاني جديدة، ومضافة، قد لا يمتلكها النص الأصل نفسه. ولما كانت المعاني هي العصب الحيوي في كل عملية تواصلية فإن الترجمة تجتهد لا في إحداث التطابق بين المعنى الأصلي ومعنى مبحوث عنه في اللغة الهدف، وإنما تسعى إلى إيجاد معادل تكيفه مع ثقافة اللغة الهدف دون تحريفه أو تشويهه. ومن هنا نفهم إلحاح بنكراد على أهمية المعنى في الترجمة بوصفه محور كل السلوكات البشرية بما فيها الفعل الترجمي، متبنيا مقولة كريماص "إن الذين ينكرون وجود معنى إنما ينطلقون من تصوُّر (هو في الأصل معنى) فإنهم يعترفون بوجود(14)".

الترجمة بوصفها رقابة وتوجيها : كثيرا ما تناول سعيد بنكراد في مواضع عديدة مما يكتبه حول السيميائيات مسألة ما اعترى النظريات السيميائية من تبسيط واختزال وسوء فهم أضرّ بها في المنابر الجامعية العربية(15). ولا يُفهَم من الرقابة والتوجيه هنا فقط جانبهما الأخلاقي السلبي الذي يعني التّرصد والتتبع لالتقاط أنفاس المشتغل بالمفاهيم السيميائية، ومدى إجادته في توظيفها واستثمارها من عدمه، وإنما تصحيح ما يروج من ضروب الخلط والاضطراب في تمثلها عند القارئ والباحث على حد سواء. من ثمّ يرنو بنكراد المترجم إلى الدعوة ضمنيا إلى ما يمكن تسميته بالترجمات الأكاديمية العلمية الموثقة لما تلعبه من دور كبير في تجنب التأويل المنحرف لأسسها وتجلياتها في التطبيق. وهو ما يعني أن الترجمة عنده هي، من جهة، رقابة لتصحيح الأفكار وتأطيرها، تمهيدا لاستيعاب سياقاتها في الحقل السيميائي، وهي، من جهة أخرى، توجيه للقارئ لالتقاط المفاصل الأساسية لفهم النظرية لا في أبعادها الجمالية فحسب، بل وكذلك الفلسفية والمعرفية. يقول ": أنا أترجم لكي أمكن القارئ من القيام برقابة على ما يُكتب في العربية حول السيميائيات(16)". لذلك ظل استثمار مكاسب النظرية السيمائية، على مستوى

المنهج، مرتبطا ارتباطا وثيقا بتمثُّل النظرية واستيعابها في أصولها، وحتى عندما يكتب س. بنكراد عن النظريات السيميائية مثلا- فهو يستحضر الأصل كقوة مرجعية؛ ومن ثمّ كان حريصا في تقديمه لها على تتبعها في مصادرها وجذورها المعرفية(17)، ولا ينفصل "رد المنهج إلى منابعه الأولى، أي الأصول التي انبثق عنها(18)" عن رد الترجمة إلى مسارها الصحيح، كلما حدث فيها اعوجاج أو تحريف، لحظة نقلها أو استنباتها في أفق لغوي مغاير وفضاء ثقافي جديد. من ثم يفسر لنا س. بنكراد السبب الذي من أجله تتحول مقدماته لبعض الكتب التي يترجمها إلى مقدمات مركزة، وطويلة (أربعون صفحة مثلا في ترجمته لـــ"سيميائية الأهواء" لغريماس وفونتانيي، وعشرون صفحة في كتاب "العلامة: 12واثنتي عشرة لـــ"دروس الأخلاق"، خمس عشرة صفحة لـــ "الصورة: المكونات والتأويل"(19).

الترجمة إعادة كتابة للنصوص : مما سبق يمكن أن ندلف لتصور آخر للترجمة عند س. بنكراد. وهو المتعلق بالترجمة بوصفها إعادة إنتاج reproduction، بما يعني اكتشافا لثقافة الأنا وهي تواجه الآخر. لكن بنكراد يلح على مسألة الندية في محاورة فكر الآخر، وليس الاكتفاء فقط بالتلقي السلبي، أو بنقل المحتويات والقوالب الجاهزة والأفكار المستوردة. والترجمة بهذا المفهوم هي تفاعل تبحث فيه اللغة المستقبلة عن أفقها المعرفي، بقدر ما تبحث عن شقِّ منافذ جديدة لحمولاتها الفكرية. واللغة العربية، إذ تحاور اللغات الأخرى، تقيسُ درجة إسهامها ضمن "زمنية واحدة بين كل إسهامات الإنسانية في الفكر المعاصر(20)". من ثمّ يرى بنكراد أن الترجمة تُقلق "الأصوليين"، لأنها تسعى دوما إلى خلخلة اليقينيات التي يبشرون بها ويدعون إليها(21).

وتأخذ صورة إعادة الإنتاج التي يتبناها س. بنكراد بُعْدا أكثر اتساعا وشمولا عندما يجعل من الترجمة، لا قنطرة عبور لفكر الآخر فقط، والاستئناس بنظرياته، وإنما عودة للسياقات والأطر الكبرى التي تتناسل منها النظريات والأفكار، خاصة في مجال الدرس الأدبي السيميائي. وهي دعوة لتجاوز الإطار الضيق للترجمة بوصفها نقلا ليس إلا، إلى هدف أسمى وأرحب يدعو إلى مساءلة الأصول والخلفيات. فالسيميائيات، مثلا، ليست مجموعة من المفاهيم المفصولة عن سياقاتها وجذورها الفلسفية، في الفلسفة الظاهراتية أو الكانطية. وحينما نترجم فنحن ننتقل من مفاهيم إلى أخرى، لكن ضمن سياقات محددة، ومنظومات مؤطرة معرفيا، وبالتالي فنحن، شئنا

أم أبينا، نبني مفاهيم وأفكار جديدة انطلاقا من طريقة فهمنا وتمثلنا للنظريات عبر وسيط الترجمة، التي لا شك أنها تعيد بناء الفكر وتفجر طاقات اللغة الهدف (اللغة العربية هنا)، وتبني لها جسورا للخروج من الضيق إلى السعة، ومن الخاص إلى الكوني.

الترجمة رديفا لممارسة البحث العلمي : عن هذا التصور الناضج لفعل الترجمة نصل إلى نقطة الأخيرة تترتب عنه، وهي كيف تصبح الترجمة أداة لممارسة البحث العلمي؟

يعتقد الكثير من الباحثين أن ممارسة الترجمة لا علاقة لها بمفهوم البحث العلمي، على الأقل في حدوده المتعارف عليها. وفي ظني المتواضع أن هذا التصور ضيق للغاية، وقد نتفق مع الذاهبين هذا المذهب إذا كانت الترجمة مجرد ترجمة، ونقل، في غياب عرض للأسس والخلفيات، وفي غياب للترجمة النقدية التي ينبغي أن يُؤطّر فعل الترجمة الأكاديمي ضمنها. ألم يتأسس قسمٌ كبير مما يسمى بحثا علميا في النقد العربي الحديث على الترجمة، بشقيها المباشر وغير المباشر؟ ! وليس ثمة داع إلى التذكير بأن الترجمة اليوم، في معظم حقول المعرفة، تعتمد طريقين لا ثالث لهما: فإما العودة إلى النصوص كما يصنع الألمان اليوم مع فكر عصر التنوير الذي أصبحوا يشددون على مسألة العودة إلى النصوص بلغتها الأصلية، والطريق الثاني ترجمةُ هذه النصوص وفق منهجية تعتمد آخر المستجدات في نظريات الترجمة. ومنها بالخصوص نظرية النسق المتعدد ومنهج دراسات الترجمة الذي ينظر إلى النصوص المترجمة في إطار كلي ينصب فيه البحث عن القيم الجديدة، والرؤى التي يمكن للترجمة تسريبها لنسق اللغة المستقبلة، في سبيل إحداث تغييرات محورية في صلب بنيتها اللغوية والفكرية. ولعل منحى الدكتور سعيد بنكراد أقرب في تصوري لهذا التوجه الذي عبر عنه في جل ترجماته الأكاديمية التي تصلح فعلا لأن تكون نموذجا للترجمات الأكاديمية العلمية التي فيها عملٌ كبير، وصنعة متقنة. وقد لاحظ الكثيرون ممن يعرفونه عن كثب عندما حلّ أول مرة مدرسا لمادة السيميائيات عام 1985 بكلية الآداب مولى إسماعيل بمكناس منذ الثمانينات أن لغته العربية قد عرفت في التأليف والترجمة معا تطورا كبيرا في ظرف قياسي، ما جعل قراء العربية يقبلون على قراءة ترجماته وتداولها على نطاق واسع في تخصص دقيق كالسيميائيات. وفي تصوري أن اللغة السيميائية عرفت مع إسهاماته هذا الباحث انتعاشة لافتة للنظر في نقدنا العربي الحديث، بعد أن غلب عليها الطابع النظري، والمحدودية في العرض.

وإذا كانت هذه الإسهامات في التأليف متنوعة وغنية، وتنبئ عن صولات الباحث وجولاته فيها، ومن خلال مصادرها الأصلية (الفرنسية بخاصة)، فإن ترجماته أسهمت في ردم الهوة بين لغة التعقيد والصورنة التي وُسِمت بها السيميائيات في لغاتها الأصلية وبين تيسيرها في لغة عربية مفهومة متاحة للقراء، باحثين وطلبة. ونعتقد، غير مبالغين، أنه يأتي في مقدمة السيميائيين العرب الذين جعلوا من السيميائيات تخصصا متاحا في لغتنا العربية، دون أن يعني ذلك تنكرا لجهود ريادية سابقة، لكن فضله يكمن في وفرة الإنتاج ونوعيته ووتيرته، مع تمثل واستيعاب عميق للأسس والخلفيات والأبعاد قل نظيره في نقدنا العربي الحديث.

على سبيل التركيب المفتوح: ستظل ترجمات "تاريخ الجنون" لميشيل فوكو، و"العلامة" لأمبرطو يكو و"سيميائية الأهواء" لغريماس وفونتانيي، وغيرها من ترجمات بنكراد، علامات في تاريخ الترجمة العربية المعاصرة، يمكن أن يقبل عليها القارئ مطمئن البال، حتى وإن لم توجد ولن توجد ترجمة نهائية أو مثالية لأي نص في الوجود. وإنه لجدير بالباحثين الشباب الذين اتخذوا من الترجمة ممارسة، إلى جانب البحث، أن يعودوا لمقارنة هذه الترجمات بأصولها، فيستفيدون بما يمكنهم من التعرف على ألوان من تقنيات الترجمة عند س.بنكراد. ذلك أنّ تمثل نظريات الترجمة لا تصنع، بالضرورة، مترجما جيدا أو مثاليا، وإنما الاحتكاك بتجارب المترجمين، والإنصات إلى خبراتهم واقتناص حيلهم وطرقهم وتفننهم في ترويض النصوص لتكييفها مع اللغات التي يترجمون إليها سبيل من السُّبل الناجعة التي تُعلِّمنا كيف نستفيد من تجارب الآخرين، وكيف نقهر الصعوبات وهو الرأي الذي يرجحه أحد كبار الذين درسوا الترجمات من منظور الموازنة والمقارنة في العصر الحديث من خلال عملين شهيرين هما : "في سبيل نقد الترجمات، جون دون" و" امتحان الغريب" للناقد الفرنسي المعروف أنطوان بيرمان(22).

1-حاز سعيد بنكراد في مجال الترجمة جائزتين هامتين هما جائزة الأطلس الكبير التي يمنحها القسم الثقافي للسفارة الفرنسية عن ترجمته لكتاب "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" لميشيل فوكو عام 2006؛ وجائزة المغرب للكتاب (صنف الترجمة) عن ترجمته لكتاب "سيميائية الأهواء" لجاك فونتنيي وجوليان ألجيرداس كريماص(دورة 2010). أما عن ذيوع ترجماته وما لاقته من الإقبال فيكفي دليلا عليه هذه القرصنة الشاملة التي طالت جميع ترجماته ومؤلفاته في العديد من مواقع الشبكة العنكبوتية.

2-لعل أوضح مثالين لدينا في المغرب هما الدكتور محمد مفتاح والدكتور سعيد يقطين. فرغم إسهامهما المعروف في بلورة ملامح من النقد العربي الحديث، إلا أنهما أحجما بالكلية عن خوض الترجمة،حتى في مجال تخصصيهما اللذين برزا فيه أعني النقد المعرفي والسرديات على التوالي.

3-شارك بنكراد في عملين مترجَمين جماعيين هما كتاب "طرائق السرد الأدبي" بمقالة تحت عنوان " السميائيات السردية: المكاسب والمشاريع" لألجيرداس جوليان كريماص (ص.ص. 183 - 203.) ؛ وكتاب "نظرية الأدب" (قيد الصدور عن دار الكتاب الجديد ببيروت، 2016) بمقالة تحت عنوان "عن التأويل" لماريو فالديس.

4-. البلاغة وتحليل الخطاب، مجلة فصلية علمية محكمة، ع.3. 2013. ص، 140.

5-نفسه، 141.

6-راجع مثلا مقدمته لترجمة كتاب "العلامة : تحليل المفهوم وتاريخه" لأمبرطو إيكو، المركز الثقافي العربي2008، ص 8. وكذلك مقدمة ترجمة "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"،المركز الثافي العربي،

7-البلاغة وتحليل الخطاب، مرجع مذكور، ص 145.

8-عبد السلام بنعبد العالي، في الترجمة، دار توبقال للنشر،2006. انظر القسم الخاص بـــــ : الترجمة والميتافيزيقا. ص.ص 17-27. "ضيافة الغريب"، دار توبقال للنشر، ط 1. 2015. القسم 4 "الفلسفة والترجمة" ص 32.

9-مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، مرجع مذكورّ، ص.140.

10-نفسه. ص.141.

11-. سعيد بنكراد، سيرورات التأويل :من الهرموسية إلى السميائيات"،منشورات الاختلاف، 2012، ص 55.

12-نفسه. ن.ص.

13-نفسه ص. 73.

14-البلاغة وتحليل الخطاب، مرجع مذكور، ص 134.

15-نفسه ص. 140. 16-نفسه.

17-سعيد بنكراد، السميائيات السردية، منشورات الزمن، ع 29،2001، ص 8.

18-نفسه.

19-روى سعيد بنكراد في لقاء أقيم على هامش تكريمه بمراكش عام 2013 أنه عندما انتهى من ترجمة "سيميائية الأهواء" وقرأه، هاله أمْرُ ما يمكن أن يكابده القارئ من صعوبة في فك طلاسمه وتعقيداته. فالكتاب لم يكتب للعامة وإنما كُتب بلغة علمية صعبة تختزن تجربة كاتبيه الممتدة والطويلة مع السمائيات، وهو علم صوري تقعيدي غير متاح للعامة، مما اضطره إلى إعادة ترجمته و الاستعانة، من ثمّ، بالمؤلف المشارك الذي لا يزال على قيد الحياة (جاك فونتانيي) لفك مغالقه، تمهيدا لإعادة تحريره مرة أخرى بلغة عربية ميسرة قابلة لجعله في متناول الباحثين والمهتمين العرب.

20-البلاغة وتحليل الخطاب، مرجع مذكور، ص 141.

21-نفسه.

22- Antoine Berman, *pour une critique des traductions*, John Donne, éd. Gallimard, « Bibliothèques des idées » 1995 p. 13 ; cf. *L'épreuve de l'étranger, culture et traduction dans l'Allemagne romantique,* coll. TEL, 1995. P. 309.